

الزعامة والإرث فوق السياسة والثورات

التوريث السياسي في لبنان بين الاغتيال والاعتزال
جريدة القبس 20 مايو 2015



طوني ووالده سليمان فرنجية ووليد جنبلاط ونجله تيمور خلال لقاء سابق جمعهم في بنشعي (شمال لبنان (الوطنية)



صورة ارشيفية للرئيس سعد الحريري أمام نصب والده في المكان الذي استشهد فيه وسط (بيروت (دالاتي ونهرا)



تيمور جنبلاط (الثالث من اليمين) يستقبل وفودا شعبية وسياسية في المختارة في جبل لبنان (دالاتي ونهرا)



(الشهيد بيار وشقيقه سامي ووالدهما امين الجميل (الانترنت)

انديرا مطر

في وجه من وجوهها، استهدفت الثورات العربية توريث رؤساء مصر واليمن وليبيا السلطة لابنائهم. وهذا ما كان حصل في سوريا في عام 2000.

في لبنان لم يحدث أن ورث رئيس السلطة لابنه. لكن لبنان اليوم بلا رئيس، فيما نفذ الزعيم اللبناني وليد جنبلاط قراراً اتخذته قبل أشهر: تسليم نجله تيمور زعامة الطائفة والحزب التقدمي الاشتراكي. أولى خطوات تيمور في طريق التوريث دشنها يوم السبت الفائت باستقبال وفود شعبية في قصر المختارة جرياً على عادة والده لسنوات خلت. حماسة تيمور بدت واضحة في اتمام المهمة الأولى بنجاح، اذ استمر في استقبال الوفود حتى بعد انتهاء المواعيد. لكن وليد جنبلاط - الذي ورث زعامة الحزب والطائفة والحركة الوطنية عن والده بعد اغتياله في عام 1977 - ليس فريد زمنه في لبنان في ما يتعلق بالتوريث.

يروى أن رئيس مجلس النواب ورئيس حركة أمل نبيه بري جادّ في توريث أحد ابنيه عبدالله ومصطفى زعامته.. أما حسن نصرالله فاستهل زعامته وقيادته حزب الله باستشهاد ابنه هادي في جنوب لبنان، ويحمل أحدث اتوستراد في الضاحية الجنوبية لبيروت اسمه. هؤلاء رؤساء أحزاب أصلاً، وتأسست زعامتهم على تحطيم العائلات السياسية، خصوصاً في حالتها بري ونصرالله في الجنوب، او استتباعها: الأسعد، عسيران، الخليل، الزين. فما بالك بالزعماء الذين تقوم زعامتهم أصلاً وتصدر عن إرث عائلي قديم نسبياً، ومزامن لنشوء لبنان الحديث في 1920: ال فرنجية، ال الجميل، ال كرامي، ال شمعون، ال سلام.

توريث بعد الاغتيال

وإذا كان التوريث قبل الحرب يتم بسلاسة وبعد وفاة الزعيم - الأب، فإن مسألة التوريث في زمن الحرب اتخذت طابعاً مأساوياً، خصوصاً لدى آل الجميل وجنبلاط وكرامي، والحريري أخيراً في زمن ما بعد الحرب. وعلى عكس الفكرة الشائعة بأن ضحايا الحرب في لبنان 1975 - 1990 هم مقاتلو الميليشيات والتنظيمات المسلحة والمدنيون، فإن الاغتيال أصاب معظم العائلات السياسية في لبنان. فاغتيال رياض الصلح في عام 1952 أدى الى توزيع زعامته في عائلته. مع العلم أنه لم ينجب أبناء ذكورا أصلاً. اما اغتيال الزعيم الدرزي كمال جنبلاط في عام 1977، فقد أرغم نجله وليد البعيد كل البعد آنذاك عن السياسة على ارتداء عباءة الزعامة في الطائفة، اضافة الى تزعمه الحركة الوطنية في الشارع الاسلامي التي كانت تخوض الحرب

ضد الجبهة اللبنانية في الشارع المسيحي. غير أن اغتيال رشيد كرامي – الذي ورث زعامته عن والده المفتي الطرابلسي عبدالحميد كرامي، وكان أصغر نائب في البرلمان اللبناني – لم يكن اغتيالاً حربياً. ولأنه لم يكن متزوجاً أصلاً، ورث عنه الزعامة أخوه عمر كرامي الذي قبل وفاته بمدة تمكن من إيصال ابنه فيصل إلى الوزارة. ثم ما لبث أن ورث عنه الزعامة فور وفاته.

التوريث في المدن الساحلية

في بيروت أدت الحرب إلى تحطيم الزعامات العائلية (سلام، اليافي، الدنا، الصلح، الوزان). أما بعد الحرب، فقد تابعت زعامة رفيق الحريري الناهضة والمستجدة على المشهد السياسي اللبناني، أزاحة هذه العائلات. وهذا ما حمل الراحل منح الصلح على القول إن رفيق الحريري «عتقنا» أي أن حيوية الحريري وديناميكيته وحضوره أدت إلى «تبهيت» وجوه العائلات السياسية البيروتية التقليدية. لذا، لم يبق من تلك الوجوه اليوم سوى رئيس الحكومة الحالي تمام سلام الذي كان زاهداً أصلاً في وراثة زعامة والده صائب سلام. وإذا كان التوريث في طرابلس احتفظ باستمراره في ما يتعلق بالكرامي، فإن عائلات سياسية أخرى كالمقدم، اختفى صيتها مع غياب فاروق المقدم الذي تحول إلى زعيم ميليشيا في بداية الحرب. أما آل الجسر وآل الأحذب، فيستند حضورهما مع سمير الجسر ومصباح الأحذب إلى قوة زعامة الحريري في الطائفة السنية. لكن بيروت الأكثر حداثة من طرابلس، فإن عائلاتها السياسية أقل تجذراً أهلياً. مع العلم أن جميع الوجوه السياسية البيروتية الحريرية الراهنة لم تصدر عن بيوت سياسية سابقة ومعروفة. وفي صيدا ورث النائب الشعبي معروف سعد زعامة مدينة صيدا القديمة وسوقها لابنه مصطفى الذي تعرّض لعملية اغتيال أثناء الحرب، وخلفه في النيابة شقيقه اسامة سعد. لكن زعامة رفيق الحريري الصيداوية عبر شقيقته بهية، استطاعت أن تزيج آل البزري من المشهد السياسي الصيداوي، وتحاصر حضور آل سعد.

مآسي التوريث المسيحي

تأسست زعامة آل الجميل مع تأسيس حزب الكتائب اللبنانية في الثلاثينات من القرن العشرين. وكانت زعامة مسيحية مستجدة، وغير ناتجة عن وراثة عائلية، كزعامة ريمون إده نجل رئيس الجمهورية اميل إده. لم يحالف الحظ أبداً الشيخ بيار الجميل في الوصول إلى رئاسة الجمهورية، مع أنه كان دائم الطموح إليها. لكن حلمه تحقق بوصول ولديه وصولاً تراجيدياً إلى سدة الرئاسة. فبشير، الابن الأصغر للشيخ بيار كان عنيداً ومشاكساً وقائداً عسكرياً للقوات اللبنانية، أما ابنه الآخر أمين، فكان نائباً ومحامياً. في عام 1982 أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان خلع بشير الجميل البزة العسكرية وانتخب رئيساً للجمهورية، اغتيل بعد 18 يوماً على انتخابه، وقبل تسلمه سدة الحكم، ما أدى إلى انتخاب أمين رئيساً للجمهورية. هناك من يقول إن آل الجميل عائلة سياسية تراجيدية: فابنة بشير الطفلة مايا اغتيلت في عملية كان المقصود منها اغتيال والدها. وبعد اغتيال رفيق الحريري اغتيل النائب والوزير بيار الجميل الحفيد (ابن أمين الجميل) ضمن شهداء الاستقلال الثاني، فال جزء من زعامة آل الجميل إلى أخيه النائب سامي الجميل وجزء آخر إلى النائب نديم ابن بشير.

في هذا السياق تحضر زعامة آل شمعون المبتدئة بالزعيم المسيحي العتيق الأكبر كميل نمر شمعون النائب ورئيس الجمهورية، الذي توفي غير راضٍ عن أداء نجليه داني ودوري السياسي. تعرّض داني شمعون مرتين للاغتيال: الأولى رمزية، في منطقة الصفراء، مع قيام

بشير الجميل بتصفية منظمته العسكرية «نمور الأحرار»، والثانية أودت بحياته اغتيالاً مع زوجته وطفليه في نهاية حرب الإلغاء التي خاضها العماد ميشال عون (وكان داني من مؤيديه) ضدّ سمير جعجع، وأدت إلى دخول الجيش السوري إلى المناطق المسيحية آنذاك. أما شقيقه دوري، فلم يتمكن من الوصول إلى مجلس النواب إلا بعد ثورة الأرز، متحالفاً مع وليد جنبلاط في الشوف.

لا تكتمل مآسي التوريث المسيحي إلا بالحديث عن آل فرنجية، الذين بدأت زعامتهم بنيابة حميد فرنجية في زغرتا في الثلاثينات من القرن الماضي. وكان من زعماء الاستقلال اللبناني. أصيب حميد فرنجية مبكراً بشلل أقرعه ونقل الزعامة في زغرتا إلى شقيقه سليمان فرنجية الذي كان يعتبر ذراع زعامة آل فرنجية في النزاعات العشائرية الزغرتاوية. بعد صعود قوة الحلف الثلاثي المسيحي (إده - شمعون - الجميل)، حالف الحظ سليمان فرنجية في الوصول إلى الرئاسة 1970، مرشحاً وسطياً بين الأقطاب الثلاثة الأنداد. ثم لم يلبث أن عين نجله طوني وزيراً للبريد والبرق والهاتف في حكومة «الشباب» برئاسة صائب سلام. اغتيل طوني فرنجية وأسرته في منزله في زغرتا أثناء احتدام الصراع بين الكتائب اللبنانية والزعامات المحلية المسيحية، ومنهم آل فرنجية. لم ينج من أسرة طوني سوى نجله الأصغر سليمان الصغير، الذي رباه جده ليرث زعامة والده القتل وجده. وهذا ما حصل بعد وفاة الرئيس فرنجية. ومنذ بضعة أشهر نسجاً على منوال وليد جنبلاط، أعلن سليمان الحفيد عن نيته توريث ابنه المقعد النيابي في زغرتا.

سنة اللبنانيين

يرى الباحث المؤرخ عبدالرؤوف سنو أنّ لبنان منذ تكوّنه سيطرت على حياته السياسية كبريات العائلات التقليدية، من زعامات اقطاعية طائفية وبكوات وعشائر ووجهاء وزعماء ومشايخ ورجال دين ورجال أعمال. وتجلّى نفوذها في مناطقها، وفي المجالس النيابية والوزارية والرئاسات الثلاث. وبين الأعوام 1920 و1972 توارثت المقاعد في المجلس النيابي، الأحفاد عن الآباء والأجداد أو الأعمام وأبناء العم والأصهار: ومنها عائلات أرسلان والزين والفضل والحسيني، والخازن والأسعد وعسيران وحيدر وإده وحمادة وجنبلاط والخوري، وسكاف وفرنجية، والخطيب وكرامي والجميل والهراوي وشمعون، وسلام. وهذا ينطبق أيضاً على المجالس الوزارية.

احتكار المناصب

يتابع الدكتور سنو: هذه «العائلية» أفرزت علاقات «زبانية»، وهي من سمات النظام الطائفي اللبناني. وهناك قلة من الشخصيات اللبنانية التي تبنّت مركز الزعامة، من خلال العمل السياسي بعيداً عن قوّة المال أو الجاه العائليّ أو الاقطاع، ككبير الجميل في بيروت، ومعروف سعد في صيدا.

هذا الاحتكار للمناصب وتوارث الزعامة أو الحكم داخل أفراد العائلة، جاء نتيجة عاملين:
- 1 النظام الإقطاعي الذي ساد في لبنان، وجعل من الزعيم المرجعية الأولى والأخيرة للجماعة التي تخضع له وتعمل لديه.

- 2 انتقال لبنان من الطائفية المجتمعية إلى الطائفية السياسية منذ عهد الأمير بشير الشهابي الثاني. فالإقطاعي كان يقدم الحماية للمزارعين العاملين في أرضه ويلتزمون

بحكمه عليهم ويدافعون عنه، في حين أنّ الزعيم الطائفي يؤمّن العمل والوساطات لأبناء طائفته .

يعمل الزعيم على جعل أبنائه يتدربون على يديه، فيعلمهم فن السياسة وكيفية جذب الجماهير إليه والتلاعب بهم، وبخاصة خلال الانتخابات. وفي حال عدم وجود الأبناء، يحيط الزعيم نفسه بأشقائه أو الأقرباء من أفراد عائلته .

التوريث العلماني

ويضيف سنّو، أنّ التوريث لا يتوقف عند الزعامات والعائلات التقليدية، بل نراه موجوداً في معظم الأحزاب السياسية، حتى التي تدعي العلمانية. فالحزب التقدمي الاشتراكي، رغم ادعاء الاشتراكية والتقدمية، يقوم على توريث الزعامة السياسية، من كمال جنبلاط إلى وليد فتيمور. وفي المقلب الآخر، ورث النائب طلال ارسلان، زعيم «الحزب الديموقراطي اللبناني» زعامة الدروز الأرسلانيين ومقعد والده مجيد في المجلس النيابي. وهذا ينطبق على زعامات أخرى كآل فرنجية ومعوض وكرامي في الشمال. واللافت أنّ «حزب الكتائب اللبنانية» و«حزب الوطنيين الأحرار» اللذين تأسسا كمنظمتين شبابيتين من رجال أعمال ومحامين، بعيداً عن الفكر الإقطاعي، تحولوا إلى وراثيين، من بيار الجميل إلى نجله أمين، ومن كميل شمعون إلى دوري. على عكس كل ذلك، فالحزب الشيوعي اللبناني لا يقوم على نظرية التوريث، وكذلك "حزب الله" والحزب القومي السوري الاجتماعي.

الحمايات الطائفية

أما سبب تقبّل الناس فكرة توريث الزعامة في لبنان، فيعود إلى الطائفية، التي تجعل الناس ينضون تحت مظلة زعيمهم الطائفي، حتى ولو كانوا غير راضين عنه تماماً. فمن دون هذه الزعامة، يفقد الفرد أو المواطن في البلد الطائفي الحماية والأمن اللذين يوفرهما له الزعيم. حتى الحصول على الوظيفة أو المنصب، لا يمكن في لبنان تأمينهما من دون الزعيم.